السَّطْرُ الأخير من القصَّة[١]

رجعتُ إلىٰ أوراقٍ لي قديمةٍ يبلغ عمرها ثلاثين سنةً ، أو لِوِاذَها ، تزيد قليلاً ، أو تنقص قليلاً ، وجعلت أَفْلي[٢] هذه الأوراق واحدةً واحدةً ، فإذا أنا على أطلال الأيَّام في مدينةٍ قائمةٍ من تاريخي القديم ، نائمةٍ تحت ظلماتها الَّتي كانت أنوارَ عهدٍ مضى ، وإذا أنا منها كالذي اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ، ثمَّ آب إليه ، فما يَرى من شيءٍ كان له به عهدٌ في أيَّام حِدْثانه ، ونشاطه إلا اتَّصل بينهما سِرٌّ ، ومن طبيعة القلب بالعاشق في حنينه أن يَجعل كلَّ شيءٍ يتَّصل به كأنَّه ذو قلبٍ مثله ، له حنينٌ ، ونَجْوى !

وذلك التَّلاشي المحفوظ في هذه الأوراق ، يحفظُ لي فيها فيما تحتويه نفساً ، وطبيعةً كانت نفس شاعرٍ ، وطبيعة روْضةٍ ، في عهد من الصِّبا كنت فيه أتقدَّم في الشَّباب ، وفي الكون معاً كأنَّ الأشياء تخلق فيَّ خلقاً آخر ، فإذا قرَضْتُ شعراً ، واستوى لي على ما أحبُّ ؛ أحسست إحساس الملك الَّذي يضمُّ إلى مملكته مدينةً جديدةً ، وإذا تناولتُ طاقةً من الزَّهر ، وتأمَّلتها على ما أحبُّ ؛ شعرت بها كأجمل غانيةٍ من النِّساء تُوحِي إليَّ وحيَ الجمال كلِّه ، وإذا وقفت على شاطىء البحر ؛ تَرجرج البحر بأمواجه في نفسي ، فكنتُ معه أكبر من الأرض ، وأوسع من السَّماء . أمَّا الحبُّ . . . أمَّا الحبُّ ؛ فكانت له معانيه الصَّغيرة الَّتي هي كضرورات الطِّفل للطِّفل ؛ ليس فيها كبير شيءٍ ، ولكن فيها أكبر السَّعادة ، وفيها نضرة القلب .

عهدٌ من الصِّبا كانت فيه طريقة العقل من طريقة الحُلم ، وكانت العاطفة هي عاطفةٌ في النَّفس ، وهي في وقتٍ معاً خُدعةٌ من الطَّبيعة ؛ وكان ما يأتي يُنسِي دائماً ما مضى ، ولا يُذكِّر به ، وكانت الأيَّام كالأطفال السُّعداء ، لا ينام أحدهم إلا على فكرة لعبٍ ، ولهوٍ ، ولا يستيقظ إلا على فكرة لهوٍ ، ولعبٍ . وكانت اللُّغة نفسها

---

(١) انظر « قصص الرافعي » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « أفلي » : أنظر متأمِّلاً .

كأنَّ فيها ألفاظاً من الحلوى ؟ وكانت الآلام ـ على قِلَّتِها ـ كالمريض الَّذي معه دواؤه المجرَّب . وكانت فلسفة الجمال تضحك من فيلسوفها الصَّغير ، الواضح كلَّ الوضوح المقتصر بكلِّ لفظٍ على ما يعرف من معناه ، المتفلسِفِ في تحقيق الرَّغبة أكثر ممَّا يتفلسف في تخيُّل الفكرة !

هو العهد الذي من أخصِّ خصائصه أن تعمل ، فيكون العمل في نفسه عملاً ، ويكون في نفسك لذَّةً .

* * *

في أوراقي تلك بحثتُ عن قصَّةٍ عنوانها « الدَّرس الأوَّل في علبة كبريت » كتبتُها في سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدري يومئذٍ أنَّها قصَّة يَسبحُ في جوِّها قدَرٌ روائيٌّ عجيبٌ ، سيأتي بعد ثلاثينَ سنة ، فيكتب فيها السَّطر الأخير الَّذي تتمُّ به فلسفةُ معناها .

وها أنذا أنشرها كما كتبتُها ، وكان هذا القلم إذ ذاك غضّاً لم يصلُب ، وكان كالغصن تميل به النَّسمة ، على أنَّ أساس بلاغته قد كان ، ولم يزل ، بلاغة فرحه ، أو بلاغة حزنه ، وهذه هي القصَّة :

« عبد الرحمن عبد الرحيم » غلامٌ فلاحٌ ، قد شهد من هذه الدُّنيا تسعة أعوامٍ مرَّت به كما يمرُّ الزَّمن على ميِّت : لا تزيده حياة الأحياء إلا إهمالاً ، فنشأ منشأ أمثاله ممَّن فقدوا الوالدين ، وانتزِعوا من شملهم ، فتُركوا للطَّبيعة تفصلهم ، وتصلهم بالحياة ، وتضيِّق لهم فيها ، وتوسِّع .

وهيَّأت الطَّبيعة منه إنساناً حيوانيّاً ، لا يبلغ أشُدَّه حتَّى يغالب على الرِّزق بالحيلة ، أو الجريمة ، ويستخلص قوَّته كما يرتزق الوحْش بالمخلب ، والنَّاب ، ولن يكون بعدُ إلا مجموعةً من الأخلاق الحيوانيَّة الفاتِكة الجريئة ، فإنَّ الطَّبيعة متى ابتدأت عملها في تحويل الإنسان عن إنسانيَّته ؛ نزلت به إلى العالم الحيوانيِّ ، ووصلتْه بما فيه من الشَّرِّ والدَّناءة ، ثمَّ لا تترك عملها حتَّى يتحوَّلَ هو إليها .

وألِفَ « عبد الرحمن » في بلده حانوتَ رجلٍ فقيرٍ ، يستغني بالبيع عن التكفُّف ، وعن المسألة ؛ فكان الغلامُ يكثر الوقوفَ عنده ، وكان يَطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطَّير ، فُتاتاً ، وبقايا ؛ إذ كان الغلام شحَّاذاً ، وكان صاحبُ الحانوت لا يرتفع عن الشِّحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدَّقون عليه بالشِّراء من هَناتِه الَّتي يسمِّيها بضاعة : كالخيط ، والإبرة ، والكبريت ، والملح ، وغزال للولد ، وكحْل

للصَّبايا ، ونشوق للعجائز ، ونسخَةِ الشَّيخ الشَّعرانيِّ ، وما لفَّ لفَّها ممَّا يصعد ثمنه من كسور المليم ، إلى المليم ، وكسوره .

وتغفَّله الغلامُ مرَّةً وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت فالتقطت « علبة كبريت » كان الفرق كلُّ الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها ؛ نصفَ مليم ؛ ولكن مَنْ له « بالعشرين الخردة » وهي عند مثله دينار من الذَّهب ، يرنُّ رنيناً ، ويرقص على الظُّفر رقصةً إنجليزيَّةً ؟ .

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همَّت نفسه أن تجادله ولمَّا تسكن رَعْشةُ يده من هَول الإثم ، ولكنَّ الغلام كان طبيعيّاً ، ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن يُحرز الحقيقة بعد أن وقعت يدهُ عليها . وقد اصطلح النَّاس على أنَّ مادَّة السَّرقة هي « مدُّ اليد » أخطأتْ ، أم أصابت ، وجاءت بالغالي ، أو جاءت بالرَّخيص فضمَّ أصابعه على العلبة ، وانتزعها ، وترك في مكانها فضيلةَ الأمانة الَّتي لم يعرف له النَّاس قيمتها ، فهانت كذلك على نفسه ، وانطلق ، وهي تناديه :

أيُّها الغلام ! أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتين من عمرك ؟ وهلا خلا النَّاس ممَّن يعرفون لعمرُك قيمةً ؟ .

وارتدَّ رجعُ الصَّوت الخفيِّ إلى قلبه من حيث لا يشعر ، فضرب قلبُه ضرباتٍ من الخوف ، ونزا نزوةً مضطربةً ؛ فالتفت الغلام مَرَّةً أخرى ، ثمَّ أمعنَ في الفرار ، وترك الأمانة تناديه :

أيُّها الغلام ! إنَّ لك في الآخرة ناراً لا توقد بهذا الكبريت ، ولك في الدُّنيا سجنٌ كهذه العلبة ، فالعب العب ما دام النَّاس قد أهملوك ! العب بالثِّقاب الذي في يدك ، فسيمتدُّ فيك اللَّهب حتَّى يجعل حياتك في أعمار النَّاس دخاناً ، وناراً ، وستكون أيَّامك أعواداً كهذا الكبريت : تشتعل في الدُّنيا ، وتحرق .

وكأنَّ أذنابَ السِّياط كانت تُلهب ظهرَ الغلام المسكين ، ولكنَّه ما كاد يلتفت هذه المرَّة حتَّى كان في قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمة من لغةِ كفِّه الغليظة ، خيِّلت له في شِعرها : أنَّ جداراً انقضَّ عليه ، وتلتْها جملةٌ من قوافي الصَّفع ، جَلجَلت في أذنيه كالرَّعد ، وأعقب ذلك مثلُ الموج من جماعات الأطفال ، أحاط به ، فترك هذا الزَّورقَ الإنسانيَّ الصَّغير يتكفَّأ على صدمات الأيدي ، فما أحسَّ الغلام التَّعسُ إلا أنَّ الكبريتَ الذي في يده قد انقدح في رأسه ،

وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنَّما تحكُّ أعواده في جلد وجهه الخشن .

* * *

وذهبوا به إلى (دَوَّار) العمدة يقضي فيه اللَّيل ، ثمَّ يُصبح على رحلةٍ إلى المركز ، والنيابة ، وانطرح المسكين منتظراً حكم الصُّبح ، مُؤمِّلاً في عقله الصَّغير ألا يفصح النَّهارُ حتَّى يكون « سيِّدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة وشهودَها ، ثمَّ أغفى مطمئناً إلى ملك الموت وأنَّه قد أخذ في عملِه يجدُّ ، وأيقن عند نفسه أنْ سيشحذُ في الخميس ممَّا يُوزع في المقبرة صدقةً على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذي عهدوا إليه جَرَّه إلى المركز . . . ! وكيف يشكُّ في أنَّ هذا واقعٌ بهم ؛ وهو قد توسَّل بالوليِّ فلان ، ونذَرَ له شمعةً يسرقها من حانوتٍ آخر . . . !

هكذا عرف الشَّرَّ قلبُ هذا الصَّبيِّ ، وانتهى به عدلُ النَّاس إلى أفظعَ من ظُلم نفسِه ، وكأنَّهم بذلك القانون ؛ الَّذي يُصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سُبحةً ؛ ليظهرَ بها مظهر الصَّالحين ؛ ولم يفهموه شيئاً ، ففهم : أنَّهم يقولون له : هذه الجريمةُ واحدةٌ ، فعُدَّ جرائمك على هذه السُّبحة ؛ لتعرف كم تبلغ ! .

كانت في الحقيقة لعبة لا سَرقةٌ ، وكانت يدُ الغلام فيما فعلتْ مُستجيبةً لقانون المرح ، والنَّشاط ، والحركة ، كما تكون أعضاء الطِّفل ، لا كما تكون يدُ اللِّصِّ ؛ وكان أشبهَ بالرَّضيع يمدُّ يدَه لكلِّ ما يراه ، لا يميِّز ضارَّةً ، ولا نافعةً ، وإنَّما يريد أنْ يشعر ، ويحقِّق طبيعته ، وكان كلُّ ما في الأمر وقصارَى ما بلَغ : أنَّ خيال هذا الغلام ألَّف قصَّةً من قصص اللَّهو ، وأنَّ الكبارَ أخطؤوا في فهمِها ، وتوجيهها . . . ! ليست سرقة الطِّفل سرقةً ، ولكنَّها حقٌّ من حقوق ذكائه يريد أن يظهر .

* * *

وانتهى « عبد الرحمن » إلى المحكمة ، فقضت بسجنه في (إصلاحيَّة الأحداث) مدَّة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير في بلده ، صدقةً ، واحتسَاباً . . . ؛ إذ لم يكلِّف الاستئناف إلا كتابة ورقةٍ ؛ فلمَّا مَثَلَ الصَّغير أمام رئيس المحكمة ؛ لم يكن معه لفقره محامٍ يدافع عنه ، ولكن انطلق من مُحامٍ شيطانيٍّ يتكلَّم بكلامٍ عجيبٍ ، هو سخريَّةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريَّة عمل

الشَّيطان من عملِ القاضي . . . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ » .

ـ « اسمي عبده ، ولكنَّ العمدة يسمِّيني : يا بن الكلب ! » .

ـ « ما سنُّك ؟ » .

ـ « أبويا هُوَ اللِّي كان سنَّان »[1] .

ـ « عُمرك إيهْ ؟ » .

ـ « عُمري ؟ عُمرِي ما عَملت شَقاوة ! » .

النِّيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيفٌ يا حضرات القضاة ! عُمره تِسْع سنوات ! » .

الرَّئيس : « صَنعتك إيهْ ؟ » .

ـ « صَنعتي ألعَب مع محمود ، ومريم ، واضْرَب اللِّي يِضْرَبْني ! » .

ـ « تعيش فِين ؟ »

ـ « في البلد ! »

ـ « تاكل منين ؟ »

النِّيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ، مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليَحرِق بها البلد . . . . »

الرَّئيس : « ألكَ أمٌّ ؟ »

ـ « أمِّي غِضْبت على أبويا ، وراحت قعدت في التربة ؛ ما رضْيتش ترْجَع ! »

ـ « وأبوك ؟ »

ـ « أبويا لاخَرْ غِضِبْ ، وراح لها » .

الرَّئيس ضاحكاً : « وانتَ » ؟

ـ « والله يا أفندي ! عاوز اغضَب ، مُشْ عارِفْ أغضب ازَّاي ! » .

ـ « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ » .

---

(١) كان أبو الغلام سنَّاناً ، ومثل هذا القدر من العاميَّة في القصَّة هو ملح القصَّة . (ع) .

« دِي هيَّ طارت من الدُّكَّان ، حسبتها عصفورة ، ومْسِكتها . . . » .

النِّيابة : « وِليهْ ما طارتشْ العلب اللِّي مَعَاها في الدُّكَّان » .

ـ « أنا عارف ؟ يمكن خافت منِّي ! » .

النِّيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ! المتَّهم وهو في هذه السِّنِّ ، يشعر في ذات نفسه : أنَّ الأشياء تخافه ! » .

فصاح الغُلامُ مسروراً من هذا الثَّناء : « والله يا فندي إنتَ راجِل طيِّب ! أديكْ عِرِفتني ، ربِّنا يكفيك شر العمدة والغفير ! » .

* * *

أمضي الحكم في الاستئناف ، وخرج الصَّغير مع رجالٍ من المجرمين يسوقهم الجند ، ثمَّ احتبَسوا الجميع فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، ليستوفي أعماله الكتابيَّة ، ثُمَّ يُساقون من بعدُ إلى السِّجن .

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفةٌ من المجرمين يتحادثون ، ويتغامزون ! وكلُّهم رجالٌ ، ولكنَّه وحده الصَّغير بينهم : فاطمأنَّ شيئاً قليلاً ؛ إذ قدَّر في نفسه : أنَّه لو كان هؤلاء قد أُريدَ بهم شرٌّ لما سكنوا هذا السُّكون ، وأنَّ الَّذي يراد بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفعةٍ ، أو صفعتين مثلاً . . . وهو يسمع أنَّ الرِّجالَ يقتلون ، ويُحرِّقون ، ويَسُمُّون ، ويعتدون ، وينهبون ؛ وما تكون (علبة الكبريت) في جنب ذلك ؟ وخاصَّةً بعد أن استردَّها صاحبها ، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم .

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنان في عينيه دموعاً كاد يريقها الجزَع ، غير أنَّ القلق اعتاده ، فالتفتَ إلى كتَّاب المحكمة مرَّةٍ ، وإلى الجند مرَّةً ، ثمَّ لوى وجهه ، ولم يَستبح لنفسه أن يتجرَّأ على الفكر فيهمَ ، لأنَّه قابلَ مهابتهم بآلهةِ بلده : العمدة ، والمشايخ ، والخفراء : فأدرك أنَّ الجنود هم الحكومة القادرة ، واستدلَّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصَّقيلة ، وتمشَّت في قلبه رهبة هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةَ أن يكونوا قد أسلموه إلى مَن يذبحه ، فنظر إلى الَّذي يليه من المجرمين ، وسأله : « راح ياخدُنِي فِين ؟ » فأجابته لكمةٌ

خفيَّة ، انطلق لها دمعُه ، حتَّى أسكته الَّذي يليه من الجانب الآخر ، وكان في رأيه من الصَّالحين ! .

ثمَّ اتَّصل الجزع بين قلبه وعينيه ، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع ، وكأنَّما يُحاول أن يستشفَّ من أيِّها سيأتيه الموت ذبحاً ، ولم يكن فهمَ معنى (الإصلاحيَّة) ، وحَكم القضاة عليه كأنَّه رجل يفهم كلَّ شيء ، ولم يرحموا هذه الطُّفولة بكلمةٍ مفسِّرة . وعدْل التربية غير عدل القانون ، فكان الواجب على القاضي ؛ الَّذي يحكم على الطِّفل أن يجعلَ حكمه أشبَهَ بصيغة القصَّة منه بصيغة الحكم ، وأن يدَعَ الجريمة تنطلق ، وتذهب ، فلا يقول لها : امكثي .

وبقي للخناجر رهبتُها في نفس هذا المسكين ، فلو أنَّهم قادوه إلى حبل الشنَّاقة لأفهمه (الحبل) معنى العقوبة ، أمَّا هو بين هذه الخناجر المغمدةِ ـ وفي الخناجر معنى الذَّبح ـ فإنَّما هو الذَّبح لا غيره .

وطرقتْ أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه ، فاستنقذتْه من هذا الخاطر ، فثبَّت عينه في الرَّجل ، فإذا هو يرى وجهاً متلألئاً ، وجسماً رابطَ الجأش ، ؛ وهُزُؤاً ، وسخريَّةً بهؤلاء الجنود ، وخناجرهم .

واستراح الغلام إلى صاحبه هذا ، وألحَّ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلَّم في وجهه الفلسفة ، وليستِ الفلسفة مقصورةً على الكتب ، بل إنَّ لكلِّ إنسانٍ حالةٌ تشغله ، فنظرُه في اعتبار دقائقها ، وكشفِ مستورِها هو الفلسفة بعينها .

وقال الغلام لنفسه : « هذا الرَّجل أقوى من كلِّ قوَّة ، فهو محكومٌ عليه ، ولا يبالي ، بل يقهقه ضحكاً ، فهذا الحكم إذاً لا يخيف ؛ لا ، بل هو تعوَّد الأحكام ، إذاً فمن تعوَّد الأحكام ؛ لم يَخَفِ الأحكامَ ؛ إذاً يا عبد الرحمن ستتعوَّد ، فإنَّ الخوف هذه المرَّة قد غطَّك من « علبة الكبريت » في حريق متسعِّر ، وما قدر « علبة الكبرت » ؟ فلو كانت السَّرقة جاموسة ما لقيت أكثر من ذلك ، يا ليتني إذاً . . . ولكنِّي لا أزال صغيراً ، فمتى كبرْت . . . آه متى كبِرت . . . » .

وبدأ القانون عمله في الغلام ، فطرد منه الطِّفل ، وأقرَّ فيه المجرم .

* * *

وأطرق « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً ، وقامت في نفسه محكمةٌ من الأبالسة بقضاتها ، ونيابتها ، يجادل بعضهم بعضاً ، ويداولون بينهم أمر هذا الغلام على وجهٍ آخر .

وقال شيطانٌ منهم : « ولكنَّا نخشى أمرين : أحدهما : أنَّ (الإصلاحيَّة) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثَّاني : أنَّ الناس ربَّما تولوه بالتَّربية ، والتَّعليم في المدارس رحمةً ، وشفقةً ، فيخرج شريفاً يحترف » .

وما أسرعَ ما نفى الخوف عنهم قولُ الغلام نفسِه بلهجةٍ فيها الحقد ، والغيظ ، وقد صفعه الجنديُّ الذي يقوده إلى السِّجن : « وِدَا كلُّه على شانْ علبة كبريت . . . ؟ ! » .

في سنة ١٩٣٤ قضتْ محكمة الجنايات بالموت شنقاً على قاتلٍ مجرمٍ ، خبيثٍ ، عيَّارٍ[1] ، مُتشطِّرٍ[2] ، اسمه « عبد الرَّحمن عبد الرَّحيم » .

* * *

(١) « عيار » : هو الذي يتردَّد بلا عمل ، يُخَلِّي نفسَه وهواها ، لا يردعها ، ولا يزجرها .
(٢) « متشطر » : الشاطر : الخبيث الفاجر .